

## العناصر الثلاثة للقومية المصرية

### أولاً - الوجود المستمر للجماعة المصرية

إن أردت تصور القومية المصرية ، أو حاولت تصويرها ، فإنك واجد رمزها الرائع ، وتصويرها الجامع في تمثال «مختار» .  
الفلاحة المصرية ، تعتمد يمينها على دعامة مصرية ، وهي ترمي ببصرها أقصى الأفق .

هذه الفلاحة هي الأم التي ولدت لمصر أبناءها وبناتها على ضفاف النيل ، جيلاً بعد جيل ، في خلال العُصر المتعاقبة ، وهي التي كانت نائمة فاستيقظت واستوت قائمة .

لم تنقطع صلتها بالماضي ، فإنها ما زالت تستند إليه ، ولا هي تقيدت بالحاضر ، راضية بالتلفق حوالها ، أو قانعة بالنظر تحت قدميها ، ولكنها تتطلع للأمام ، ناظرة إلى المستقبل .

إنها تربط الماضي بالحاضر ، وتصل الحاضر بالمستقبل  
ولكن . . . ما الحاضر ، وما الماضي ، وما المستقبل ؟  
أليس الحاضر لحظة مجردة من الامتداد الزمني ، تجرّد النقطة الهندسية من الأبعاد ؟

ثم ، أليس الماضي بدوره لحظة مجردة من الامتداد الزمني ، كانت الحاضر ، فتراجعت لتحل مكانها — في تصورنا — لحظة أخرى مثلها ، كانت المستقبل فأصبحت الحاضر ؟

وإذن ففي وسعنا أن نتصور أن الماضي والحاضر والمستقبل ، تلتقي وتندمج في لحظة واحدة مجردة من الامتداد الزمني .

ولئن صح هذا التصور بالنسبة لحياة الفرد — وهو صحيح — فإنه بالنسبة لحياة الأمة أكثر صحة ، وأوضح أثراً .

فالمصري الذي يعيش اليوم ، ليس لبننةً مستقلة في بناء القومية المصرية الحاضرة ، منفصلة عن الماضي ، منقطعة الصلة بالمستقبل ؛ ولكنه لباب الماضي ومساك الحاضر ، ونواة المستقبل . مثله كمثل اللحظة الزمنية ، يلتقي فيه الماضي بالحاضر ، ويتصل عنده الحاضر بالمستقبل .

والأمة المصرية ليست أفرادها الذين يعيشون الآن ، ولكنها أفرادها الذين ماتوا ، والذين ولدوا ، لا في هذه الساعة وحدها ، (ومصر تلد في الساعة حوالى ثمانين وتشيع نبيها وخمسين ) بل في خلال الأجيال الماضية كلها ، وأفرادها الذين سوف يولدون في الأجيال القادمة جميعها .

ولئن قسنا عدد الأحياء من المصريين في هذه اللحظة ، بعدد الذين عاشوا في القرون الخوالى بأسرها ، وجدنا أن هذه الملايين من الأحياء ، التي تعد على أصابع اليد الواحدة ثلاث مرات أو نحوها ، لا تعدو أن تكون قطرة في محيط زاخر بألوف الملايين ، بل بملايين الملايين ، ممن اشتركوا بالأمس ، أو بمن سوف يساهمون غدا في تكوين القومية المصرية وتشكيلها وتلوينها ، على كرّ الغداة ومرّ العشي .

فالقوم الذين يعيشون اليوم في مصر ، ويعرفهم العالم باسم المصريين ، ليسوا إذن مصريي القرن العشرين وحده ، ولكنهم مصريو الحقب الخوالى والعصور التوالى . هم مصر الغابرة ، وهم مصر الحاضرة ، وهم مصر المستقبل . والقومية المصرية ، أى الرابطة بين الفرد المصرى والجماعة المصرية ، شىء مركوز في كيان الأفراد المصريين .

ذكريات كل مصرى ، وتقاليده ، ومعتقداته ، هى التى يتكون من مجموعها ذكريات الجماعة المصرية ، وتقاليدها ، ومعتقداتها .

فالقومية في داخلنا ، في صميم كل فرد منا ، ولكنها أسمى من تفكير أى فرد فينا ، وأوسع من فهم جميعنا .

عاش أجدادنا وأباؤنا على ضفاف هذا النيل منذ ألوف السنين ، يتلقون فيصه في أجل معلوم ، وينعمون بشمس مصر يقطع قرصها الساطع سماءهم الصافية مرة في كل شهر ، ويسعدون بالوادی الخصب المنبسط ، لا تتبدل طبيعته ولا تتغير

معامله . لا زلازل ولا براكين تهدم ما شادوه ، ولا صواعق ولا أعاصير تخرب ما عمروه ؛ فأخلاقهم موسومة بطابع الاستمرار والاستقرار ، وقلوبهم مشربة بحب النظام ، مفعمة بحب الأسرة ، مطبوعة على تذوق الجمال ، وتقوسهم فياضة بالولاء لنظم يحلوها ، ومؤسسات يؤثرونها ، ومعتقدات يدينون بها ، جعلت منهم قوما متجانسا ، وقومية قوية لعلها أقدم القوميات وأعجدها وأخلصها .

فقد عرفنا الله وعبدناه ووحدناه ، وأدركنا الروح والخلود ، وآمنا بالبعث في اليوم الموعود ، واستأنسنا القمح واستنبطنا أغر سلالته ، وبنينا وشيدنا ، ونحتنا وصوّرنا ، وكتبنا ودوتنا ، وقسنا وأحصينا ، وحسبنا الشهور والسنين وشرعنا وطبينا ، وفكرنا وألفنا ، حين كان البشر نياما ، وكانت الدنيا جهلا وظلاما .

وإن التاريخ ليدحض دعوى المتحاملين على القومية المصرية ، ويفند مفتريات القائلين بأننا قوم طال عهدنا بسيطرة الغزاه ، والخضوع لحكم الطغاه ، حتى فقدنا قوميتنا ، واستحلنا مجموعة من أفراد متعددة عناصرهم ، متنافرة مواردهم ومصادرهم .

فما هبط واديننا شعب ، مستوطنا أو فاتحا ، إلا طويناه وتمبلناه ، وطبعناه بطابعنا ، وصغناه في قالبنا ، وأدجنناه في قوميتنا .

صنعنا هذا بالهكسوس ، والاثيوبيين ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، والأتراك ، واحتفظنا دائما بأشكالنا وسحننا ، ومعظم تقاليدنا وعاداتنا . حتى المسيحية والإسلام ، لم يكدا يغير دخولهما البلاد من أخلاقنا القومية ، إلا قليلا .

أما الذين لم يتأقلموا ، فإننا لم نلبث طويلا حتى لفظناهم وتخلصنا منهم ، كما حدث مع الفرنسيين ثم الانجليز من بعدهم .

## ثانيا - الشعور بالجماعة

وهو وجود فكرة الجماعة المصرية في عقول أفراد المصريين ، وفهمهم طبيعتها وتكوينها وحقوقها ومطالبها .

وحسبنا أن نضرب لهذا الشعور مثلا ، النهضة المصرية في سنة ١٩١٩ .

لم تكن تلك النهضة مجرد اتجاه مجموع إرادة المصريين نحو الاستقلال ، بل كانت اتجاه إرادة جميع المصريين نحو الاستقلال ؛ إذ كان الدافع لهذه الإرادة الجماعية دافعا واحدا منبعثا من يقظة الشعور العام ، ولم يكن دوافع متنوعة تختلف باختلاف الأفراد ، وإن اتجهت كلها نحو هدف واحد .

الفلاحة التي ظنوها ميتة ، كانت نائمة فصحت واستوفزت واستوت واقفة تتوكل على ماضيها وتتطلع إلى مستقبلها ، بعد أن تأصلت فكرة الأمة في عقول الأفراد الذين تتكون منهم الأمة ، وأصبحت هذه الفكرة نواة لعاطفة قوية ، تحرك دوافع قوية ، وتتغلب على سائر الدوافع ، وتتحكم فيها وتسيطر عليها .

اضمحلت النزعة الفردية ، وانطوت المصلحة الشخصية ، فاندجبت في نزعة الجماعة ، وانضوت تحت لواء المصلحة العامة ، وأصبح المصرى يرى نفسه جزءا لا يتجزأ من الجماعة المصرية ؛ وبعد أن كان شعور المصرى « أنانيا » فى شخصه أضحى شعوره « أنانيا » فى الجماعة ، فجاوز حدود نفسه ، وتخطى نطاق أسرته ، وانبعثت فيه دوافع العمل لمصلحة قومه وأمته .

زادت معرفة الفرد المصرى بالجماعة المصرية ، وتضاعف اعتزازه بلغته ، وقوى احترامه لتقاليده ، واشتد حرصه على محبة الأمة المصرية والاندماج فيها والتجانس معها ، ونشط للقضاء على ما عساه أن يشوب وحدتها من عوامل التفرقة ، بسبب اختلاف الدين ، أو الفوارق الاجتماعية وما إليها .

شعر المصريون بأن للأمة المصرية عمرا أطول من عمر أفرادها ، وأنها وجدت قبل أن يولدوا ، وأنها مستمرة بعد أن يلقوا ربهم ، وأيقنوا أنهم باندماجهم فيها يعظمون ويخلدون ؛ فاتخذوا للأثرة الفردية فلسفة جديدة ، هى الأثرة الجماعية ، وطابت نفوسهم بالتضحيات حتى روت دماءهم شجرة القومية المصرية ، فإذا أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

وكانت يقظة « الشعور السياسى » أول ثمار هذه الشجرة المباركة ، فعم الجماعة المصرية بأسرها ، وسيطر على تصرفاتها . ولا غرابة ، فقد كان أجدادنا أسبق الناس إلى التأثر بالشعور السياسى ، فاتخذ هذا الشعور فى عقلنا القومى مظهرا شبيها « بأساليب التفكير الدائم » .

ولربما ظل هذا الشعور خامدا عدة أجيال ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الظهور بكامل قوته ، حين توافرت له الظروف الملائمة . و « الوطنية » أهم مظاهر

## العناصر الثلاثة للقومية المصرية

« الشعور السياسى » ؛ فإن الطفل يحمل معه منذ العصور المتوغلّة فى القدم نزعة الولاء للجماعة التى يعيش فيها . ولئن صح ما يقوله علماء التاريخ الطبيعى من أن « الحقوق الإقليمية » معترف بها بين الحيوانات العليا ، فلا يبعد أن تكون الوطنية قد انتقلت إلينا بالوراثة من عصور ما قبل التاريخ .

وتنطوى الوطنية على « حب عاطفى لبلدنا » ، وهى عاطفة مركوزة فى العقل الانسانى ؛ لذلك لم يكن تشويه برامجنا التعليمية ، ولا مسح التاريخ المصرى فى مدارسنا ، ولا محاربة الوطنية فى نفوس الأجيال السابقة على الثورة ، ليؤثر فى محبة المصريين لوطنهم ، وقيامهم كفرد واحد للدفاع عن حقوقه .

وكما تنطوى الوطنية على حب عاطفى للبلد او الوطن ، فإنها تشمل أيضا « الشعور بالولاء نحو الوطن ، والشعور بالولاء للمواطنين » . شعور بالولاء نحو الوطن ، شبيه بشعور الولاء للأسرة ، وشعور بالولاء نحو المواطنين ، شبيه بشعور الولاء قبل الزملاء فى الصناعة ، والإخوان فى المهنة ؛ فهو جزء من « غريزة الاجتماع » ولون من « غريزة المحافظة على النفس » ، أو هو على الأقل مرتبط بهما .

وهذه الناحية من الشعور الوطنى ، أى هذا الولاء للوطن ، والولاء للمواطنين ، هو ضرورة لازمة لتكييف تصرفات المواطنين بإزاء الشؤون العامة والمسائل السياسية ، وهو أصل شعورهم بالولاء نحو حكومة البلاد ، أى نحو العرش والستور والبرلمان والوزارة .

فلم تكد تشب الثورة ، أى لم تكد تتحرك المشاعر السياسية للمصريين ، حتى اشترك أبناء البيت العلوى فى الحركة الوطنية ، واشتركت الحكومة مع الوطنيين فى المطالبة بحقوق البلاد ، وقويت الروابط إلى حد الاندماج بين ما كانوا يسمونه عنصرى الأمة ؛ إذ تبين أن الأمة ليس فيها عنصران ، بل عنصر واحد هو العنصر المصرى ؛ وضعف الشعور بالفوارق بين مصرى ومصرى ، سواء أكانت فوارق اقتصادية أم علمية أم اجتماعية ، وقوى الشعور بضرورة إزالة هذه الفوارق عن طريق رفع المستوى العام للطبقات الفقيرة والجاهلة ، وأصبحت الوطنية دين الجميع ، والوطن قبلة الجميع ، والقومية المصرية شعار الجميع . ومما يرتبط بالوطنية ويكاد يتحد وإياها ، شعور اصطلاحنا على تسميته « العزة الوطنية ، أو الكرامة القومية » .

وهو شعور قد يظل كامناً عدة قرون ، فإذا صادف الحافظ الملائم ، ورى شراره ، واندلع أواره ، وتأججت ناره ، حتى إذا تولته القيادة القوية الأربية ، استكمل عناصره ، وصهر الروح القومية فصق شوائبها ، وسماها إلى عليين . وما الكرامة القومية غير إحساس هدفه تحقيق الرضا القومى . وكما أن من مظاهر احترام النفس أن يسكن الإنسان الدار التى يختارها ، ويرتدى الملابس التى يجدها لائقة ، فإن من مظاهر الكرامة القومية أن يختار الفرد الحكومة التى يعيش فى كنفها ، ويدين بالولاء لها . على أن يكون رجالها من بنى جنسه ، يتكلمون لغته ويشعرون شعوره ؛ لأن المواطن ينظر عادة إلى حكومته كأنها جزء من نفسه ، وبضعة من حسه ، وقطعة من ماله وملكه . وقد كان ليقظة شعورنا بالكرامة القومية ، الأثر البالغ فى حياتنا الوطنية ، فاسترددنا استقلالنا ، وانطلقت أيدينا فى إدارة بلادنا وتمثيلها لدى الدول الأجنبية ، وأصبح لنظ دستور وبرلمان واشتراك فعلى فى الحكم ، قوامه الاقتراع العام ، والمسئولية الوزارية . ثم تلا ذلك إلغاء الامتيازات الأجنبية ، فخلص بذلك شرفنا القومى من أذى المذلة أمام الأجنبي ، الذى كان يعيش بيننا دون أن يخضع لتشريعنا الجنائى أو المالى ، أو يحاكم أمام قضائنا الوطنيين ومحاكمنا الوطنية . وهأنذا نحن أولاء قد تخلصنا من ديننا الدولى ، الذى كانت مذلتة تطوق عنق كل مصرى ، وأصبحنا على أبواب الحدث العظيم الذى نستكمل به استقلالنا تاماً خالياً من كل شائبة .

## ثانياً - التنظيم والقيادة

هو العنصر الذى لا غنى عنه لأى جماعة تريد القيام بعمل قومى جماعى . وقد أتيح لمصر فى فجر نهضتها الحديثة عدد من أبنائها ، مثلوا وحدة الشعب المصرى ، وعبروا عن شعوره الوطنى والسياسى ، واشتركوا فى تنظيم الحركة القومية ، وساهموا فى إذكاء روحها ، ونجحوا فى توجيهها وجهة مباركة . ولئن صح لنا أن نحدد وقتاً معيناً لابتداء يقظة « الشعور بالجماعة » ، وهو ثانى عناصر القومية المصرية ، فإننا نرجح أن يكون سعيد باشا أول حاكم من

## العناصر الثلاثة للقومية المصرية

أسرة محمد علي ، ربط مصلحته بمصالح شعبه باعتباره مصرياً ، وقطع على نفسه العهد بأن يتولى المصريون تدريجاً جميع مرافق الدولة ، ونزل عن ملكية الأراضي المصرية للمصريين .

ولا ننسى للخديو إسماعيل ، دعمه شخصية مصر كدولة مستقلة ، بما استخلص من حقوقها ، وأن أول برلمان مصرى انتخب في عهده ، وأنه أول من اعترف بمبدأ المسؤولية الوزارية ، وفي أيامه جاءنا جمال الدين الأفغانى ، الذى تخرج عليه زعيم النهضة السياسية ، وزعيم النهضة الدينية ، وزعيم النهضة النسوية .

وهكذا مهد عهد سعيد وعصر إسماعيل ليقظة الشعور القومى ، وقدما لظهور عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول .

وها هو ذا صاحب الجلالة المصرية ، الملك فاروق الاول ، يضرب لشعبه المجيد المثل فى الوطنية ، والقومية المصرية .

هذه هى العناصر الثلاثة للقومية المصرية . وإنا نرجو أن نتناول فى مقال آخر ، « نواحي الضعف فى القومية المصرية » .

ربماهر شمس